

# « يقظة العرب » كتاب قديم جديد

بقلم عبد اللطيف شرارة

أخذت تعصف بالعالم العربي منذ بدأ يحتك احتكاكا سياسيا وعسكريا بدول أوروبا القومية ، فقد رأينا الأمير عبد القادر الجزائري ينتهي بعد أخفاق ثورته ، في دمشق ، ورأينا مصر منذ غزاها نابليون إلى اليوم وهي تؤثر تأثيرا مباشرا في مصائر عرب المشرق وتناثر بهم ، ناهيك عن تاريخها القديم الذي لم يكن في صلب الموضوع الذي قصد المؤلف إلى بحثه .

ولكن الدكتور نبيه فارس الذي وضع مقدمة الترجمة العربية حاول أن يقوم بعرض تاريخي أيضا يتم البحث في اليقظة العربية بادئا منذ عام ١٩٢٦ ، أي حيث انتهى أنطونيوس ، وواقفا عند الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وأضاف « وادي النيل » إلى الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ، في درس الحركة العربية .

ولقد كانت بريطانيا الحريصة كل الحرص ، منذ أصبحت ذات مصالح في الشرق العربي ، على فصل أفريقيا العربية عن آسيا العربية ، ولا يبعد أن يكون المؤلف متأثرا بهذا الاتجاه في الفصل بين شطري العالم العربي ، إذ نجده في كثير من المواقف يدفع بعض التهم عن بريطانيا : « وكثيرا ما تتهم بريطانيا في الدوائر العربية بأنها بعد أن استقلت العرب لتحقيق غايتها تحولت عامدة ضدهم حين حققت النصر . غير أن هذه التهمة في حاجة إلى جلاء . لقد كان في صفوف الحكومة وفي خارجها رجال أحسوا أن عليهم ذينا ، وكانوا يشوقون إلى أن يسروه مقضيا بشرف » ( ص ٤٢٤ ) . ويقول في مقام آخر ، دفاعا عن لويد جورج : « ويدل موقف المستر لويد جورج في ذلك الاجتماع ( السري الذي عقده الأربعة الكبار في آذار عام ١٩١٩ ) على أن الحكومة البريطانية كانت تعترف بعدالة حق العرب في الإستقلال في سوريا وأنها منجته تأييدها الكامل في مؤتمر الصلح ، وهذا يبعد التهمة التي تقول : أن بريطانيا العظمى لم تبذل جهدا لتتجز وعودها للعرب ، خارج الجزيرة العربية » ( ص ٤٢٧ ) .

هذه المواقف التي يفهما المؤلف عند سرد الوقائع وذكر الوثائق ، تلقي النور على تأثره أو أخذه - إلى حد - بوجهات النظر البريطانية في فهم التاريخ العربي الحديث ، وأعني هذه الوجهات التي يشها أنصار بريطانيا ودعاتها في الشرق العربي ، تضليلا للرأي العام فيه ، لا التي يعرفها المسؤولون البريطانيون وغيرهم ممن اشتركوا في توجيه الحوادث ، وكانوا على علاقة وثيقة بمجرها . فأيا كان الجلاء الذي يقدمه أنطونيوس للتهمة القائلة بأن بريطانيا خدعت العرب ، وتحولت ضدهم بعد أن ربحت الحرب ، تظل سيرة بريطانيا أجلى من كل بيان ، فهي لا تهتم إلا بما لها من مصالح في هذه البلاد العربية ، وإذا تحققت هذه المصالح عن طريق معاداة العرب سلكت ذلك الطريق وتحالفت مع أعدائهم . وهذا هو شأنها بالاسم واليوم وهو ما سيكون شأنها غدا .

وأما دفاع أنطونيوس عن لويد جورج فينبغيه موقف الملك حسين منه ونقمته عليه التي أوضحها أنطونيوس نفسه في الكتاب ، وأشار إليها بالتفصيل عند الحديث عن نهاية ملك الحجاز في عمان . وقد كشف النائب العمالي اليهودي ر.ه.س. كروسمان المعروف بموقف لويد جورج في محاضرة ألقاها في مستعمرة « رجبوت » عام ١٩٦٠ حول زعيم الصهيونية ويزمن في ذلك الوقت ، ونشرتها مجلة « انكاوتر » في

كان هذا الكتاب (\*\*) الذي وضعه مؤلفه العربي - وهو من ديس القمر - بالإنكليزية ، باكورة الحديث عن القومية العربية في الأوساط الأوروبية ، وحتى في بعض الأقطار العربية نفسها ، ولذلك حظي من بعد بشهرة ونجاح لم يحظ بهما غيره من المؤلفات التي تناولت الموضوع نفسه ، وأصبح « المرجع الفصل » فيه ، كما يصف الدكتور نبيه فارس في المقدمة التي كتبها لهذه الترجمة العربية ، وكان بالفعل كما ذكر في عنوانه « تاريخ حركة العرب القومية » الحديثة .

غير أن كلمة « الحديثة » أضفتها من عندي ، فالكتاب لا يعرض إلا للحركة العربية ذات المحتوى القومي التي قامت في إبان القرن الماضي - وكانت رد فعل للقومية الطورانية التي نادى بها الأتراك - مع أن الحركات ذات المحتوى القومي رافقت التاريخ العربي من أقدم العصور إلى اليوم، فوعدة ذي قار الشهيرة قامت ولها محتوى قومي ، والنزاع بين العرب والموالي في الدولة الأموية كان ذا صبغة قومية ، والحركات الشعبية عهد المباسبين كانت رد فعل للسيادة العربية .

ومعنى ذلك كله أن « قصة الحركة القومية للعرب » لم تبدأ في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ كما قرر المؤلف في فصله التمهيدي ، ولو أضاف إلى هذه الجملة كلمة « الحديثة » لما عدا الصواب . صحيح أن تلك الحركات لا تتسم بالطابع المصري المعروف للقومية ، ولكنها كانت منسجمة مع الروح ، مع الجو الفكري العام ، أن في الجاهلية ، وأن في العصور التي توالى من بعدها . وجذور اليقظة العربية تمتد - فيما نحسب - إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد ، يوم غزا الرومان الجزيرة العربية عن طريق مصر ، واخفقوا في حملتهم تلك ، كما أن اليقظة العربية الحديثة بدأت منذ غزا نابليون مصر .

بيد أن جورج أنطونيوس لم يكن حين ألف كتابه يتتبع الجذور ، ولا كان معنيا بالتحليل ، وإنما صرف كل همه واهتمامه إلى عرض الوقائع التاريخية وتزويد ذلك العرض بالوثائق والمستندات ثم انه اقتصر حتى في سرده التاريخي على فترة من الزمن لا تتجاوز ثلاثة أرباع القرن ، إذ يقف عند سنة ١٩٢٦ ، وما كانت الدراسات القومية حتى ذلك الحين على ما هي عليه اليوم من سعة وعمق ، ولا كانت الحفريات والآثار التي كشفت لتلقي الضوء الذي ألقته من بعد على التاريخ العربي برمته . واقتصر كذلك على الشطر الشرقي من دنيا العروبة أو الآسيوي ، وهما شطران لا ينفصلان تاريخيا وإن صح التفريق بينهما جغرافيا فسي التسمية أو الواقع المكاني ، فإن أفريقيا أخذت اسمها من أحد تباينة اليمن في العصر القديمة ، وهو ، أفريس ، وقرطاجة ( تونس ) كانت خلقة في سلسلة المدن الفينيقية ، والحاميون امتزجوا بالساميين منذ أقدم العصور ، فالانحصار على « التاريخ للفكرة العربية الحديثة في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب » يتنافى مع واقع القومية العربية وجذورها ولا يعطي صورة شاملة كاملة عن التيارات القومية التي

(\*) « يقظة العرب » تأليف جورج أنطونيوس ، ترجمة الدكتورين ناصر الدين الأسد واحسان عباس ، ٦٥٢ ص - نشر دار العلم للملايين بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - بيروت ١٩٦٢ .

الحديثة ، وفتحت الاذهان في هذه البلاد على العصر وما يدور فيه من شؤون الفكر والعلم والادب ، وأبقت كثيرا من الهمم في نبش كنوز الماضي وكشف ما تخبأ منها أو دفن ، ولكن القول بأنها « حضنت البعث العربي ورعته » يتطوي على كثير من القلو في تقدير أثرها أو نياتها . ودليلنا على « القلو » في هذا التقدير ما أفضى اليه التبشير في فلسطين ، والمواقف الاخيرة التي وفتحتها البلاد الغربية التي تصبدر المبشرين ، من قضايا التحرر في البلاد العربية . واذا جاز لنا أن نفصل بين المواقف السياسية والبعثات التبشيرية ، كما يريدنا المبشرون أنفسهم على أن نفعل ، فإن من المؤكد الذي لا يرقى اليه ريب ، أن هذه البعثات كانت تلاقى في مستهل قدومها الى الاقطار العربية ، كل عون وتأييد من ساسة بلادها . وهذا وحده كاف لان يبين مدى ما في كلام أنطونيوس من غلو - وهو يعرض أحداث الماضي - عن « زعاية » البعث العربي من قبل البعثات التبشيرية !

ذلك هو المآخذ الاساسي العام الذي يصح أن نأخذه على انطونيوس في كتابه « بقلظة العرب » . وهو مأخذ - أي التأثر بوجهات النظر البريطانية في فهم الاحداث وعرض التاريخ - ينبت في الكتاب على نحو خفي ، ولا يسطع سطوعا ، ولكنه يتضح لمن يتتبعه ويؤكد نفسه في معظم الخطوط الكبرى للكتاب ، وان ظهر في بعض التفاصيل ما يتناقضه ( الحديث عن فلسطين في خاتمة الكتاب )

غير أن الكتاب يظل مع ذلك ، يتمتع بقيمة نادرة في موضوعه ، ولا سيما من الناحية التاريخية فقد عني المؤلف بجمع الوثائق ، واتصل بعدد من الشخصيات الذين أسهموا في الاحداث خلال فترة ما بين الحربين ، وسرد من الوقائع ما لا يجده الباحث في غيره من كتب التاريخ المتداولة .

وكان أفضل ما أعجبني فيه حسن تبويبه ، فالكتاب يحوي ستة عشر فصلا تتسلسل فيما بينها وترابط على نحو يكاد يكون روائيسا ،

## شعر

### من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدتي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادتي	صلاح عيد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ايات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل وورقة	سليمان العيسى

### دار الاداب

بيروت - ص.ب. ٤١٢٢

عددها رقم ٨١ عن حزيران . قال فيها : « ما هي الدوافع التي حملت الحكومة البريطانية على اصدار وعد بلفور ؟ » ثم يعرض مختلف الشروح والتفسيرات ، ويذكر في جملة ما يذكر أن ويزمن نفسه قرر أن لويسد جورج كان « المحرك الاول » على ذلك الوعد ، وأنه إنما أصدره مكافأة منه لوزمن على الخدمات التي أداها لمجهود بريطانيا في الحرب ، ويهنسي كروسمان عرضه بهذه العبارة : « لقد انتهت الى الاستنتاج ان أوضح تفسير - كما هو الشأن غالبا في السياسة - هو أقرب ما يكون الى الحقيقة . ولاسباب تتباين بعض الشيء شعر كل من بلفور ولويد جورج وملتر أنهم ملزمون بعمل شيء « تجاه اليهود المضطهدين ... » . وأيا كان التفسير فإن لويد جورج يتحمل في جميع الاحوال ، تبعة كبرى ، ان لم تكن أكبر التبعات في تأييد الحركة الصهيونية وابعالها الى أهدافها الاجرامية . ونجد أنطونيوس مع ذلك يقول ما قاله في بشأن لويد جورج وموقف الحكومة البريطانية !

ويقع أنطونيوس في الخطأ نفسه - أي الاخذ بوجهة النظر البريطانية - حتى عند تفسير بعض الاحداث التاريخية ، فهو يقرر مثلا أن انتشار المنصر العربي انحصر في مجال أضيق من المجال الذي انتشرت به اللغة العربية « فمن بين البلاد المناخمة لحدود شبه الجزيرة العربية استوعب القسمان المعروفان اليوم باسم فلسطين وشرق الاردن أكبر نسبة من المنصر العربي ، وكان حظ بلاد الشام والعراق دون ذلك ، وحظ مصر أقل منها » .

ان من يقرأ هذا الكلام يحسب أن عروبة هذه البلاد موضع شك من الناحية المنصرية ، وأن تربيها حادث طارئ عليها ، وأنه طرأ بعد انتشار الحركة الاسلامية ، وواقع الامر أن الشام والعراق وفلسطين وشرق الاردن كانت عربية قبل الاسلام ، والموجات التي تواتت عليها من الجزيرة العربية تضرب في ابعاد الماضي السحيق ، وكذلك هو الشأن في مصر وسائر شمال أفريقيا ، وانحسار اللغة العربية عن الاندلس وصقلية كانحصار المنصر العربي عنهما ، نتيجة عدم وجود جذور لهما في ذينك البلدين ، ولكن صمود العروبة في شمال أفريقيا ، رغم كل ما لقيت من عوامل الابادة والضغط ، يؤيد اصالة المنصر العربي فيها ، وعمق جذوره في تربتها . ولم يكن الاسلام سوى عامل « مساعد » على ترسيخ الجذور التي سبقته في الوجود ، ولدينا في التاريخ الراهن ظاهرة واضحة الدلالة ، وهو أن مصر لم تظهر بوجهها العربي الاصيل - والحقيقي من جهة ثانية - الا بعد أن تحررت من القيود الاجنبية ، وخلصت من حكم الاجانب لها ، والانسان كالشعب لا يظهر على حقيقته الا بعد أن يصبح حرا . وما يقال في مصر ، يقال في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان ... ولم يكن من مصلحة الحكم الاجنبي - عهد وضع أنطونيوس كتابه - الا أن يخلق مثل ذلك الجو الفكري الذي يستهدف ايجاد التفرقة بين شتى الاقطار العربية وبشكك أبناءها في أصولهم واتجاهاتهم القومية .

على أن هذا التشكيك ، وتلك التفرقة أخذتا سبيلهما الى هذه البلاد ، الي العالم العربي برمته ، منذ أخذت البعثات التبشيرية تقصد عليه ، إذ كان هم هذه البعثات - ولا يزال - منحصر في تأييد اتجاهات سياسية معينة ، ولكن خلال المواقف الدينية والتبشير بمبادئ ومذاهب معينة ، وهذا ما أوضحه المؤرخ الهندي بانيكار في كتابه « آسيا والسيطرة الغربية » كما جلاه الدكتوران : مصطفى خالدي وعمر فروخ في سفرهما المعروف : « التبشير والاستعمار » . واذا أنت رجعت اليوم الى الدراسات التاريخية والادبية والفكرية التي وضعها بعض أقطاب التبشير مثل الاب لا ميس ولويس شيوخو ، رأيت فيها توجيها سيانيسا - لا دينيا - مينا ، وأدركت أن الاهداف لم تكن تقتصر على نشر المبادئ الدينية خالصة لوجه الايمان والعقيدة . ومع ذلك نجد جورج أنطونيوس يقرر في كتابه هذا أن تسامح ابراهيم باشا « فتح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك أتاح مجال العمل لقوتين : احدهما فرنسية والاخرى امريكية ، قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعيها » . صحيح أن البعثات التبشيرية أسهمت الى حد بعيد في نشر الثقافة

## سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتّاب المسرح

صدر منها :

### ١ - البقي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر  
تأليف فديريكو غارسيا لوركا  
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والحامي جلال مطرجي  
الثن ٢٠٠ ق.ل

### ٢ - ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا  
ترجمة شاكر مصطفى  
الثن ٢٠٠ ق.ل

### ٣ - هيروشيفا حبيبي

تأليف مرغريت دورا  
ترجمة الدكتور سهيل ادريس  
الثن ٢٠٠ ق.ل

### ٤ - لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندلو  
ترجمة جورج طرابيشي  
الثن ٢٠٠ ق.ل

### ٥ - تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر  
ترجمة مجاهد ع. مجاهد  
الثن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب - بيروت

وهذه لائحة بها : ١ - تمهيد : الموقع الجغرافي ، وتحديد العالم العربي .  
٢ - حركة محمد علي في مصر وأحداث الجزيرة العربية ( الوهابية )  
٣ - التبشير في البلاد العربية والنهضة الثقافية . ٤ - الاستبساد الحميدي . ٥ - الحركة العربية الوليدة : ١٨٦٨ - ١٩٠٨ . ٦ - الشبان العرب والشبان الاتراك . ٧ - الحرب والجهاد ١٩١٤ . ٨ - الخطة : ١٩١٥ . ٩ - عهد بريطانيا العظمى : ١٩١٥ . ١٠ - الثورة ١٩١٦ . ١١ - نتائج فورية ( للثورة ) . ١٢ - العرب في الحرب . ١٣ - عهود ونقيضاتها . ١٤ - تسويات تمت بعد الحرب . ١٥ - الجزيرة العربية بعد الحرب . ١٦ - العراق وسوريا وفلسطين بعد الحرب .  
ويحتوي الكتاب أيضا ثمانية ملاحق على جانب كبير من الاهمية ، لكل من يريد اعادة النظر في تاريخ العرب قبل الحرب الاولى بقبيل وبعدها ، من مراسلات مكماهون الى اتفاق سايكس - بيكو ، الى اتفاقية فيصل - ويزمن ، الى توصيات لجنة كنف - كراين ، الى غيرها ...  
وكلها وثائق يمكن من خلالها تحديد التبعات ، والقاء ضوء على ما جرى من بعدها .

ويدو لي أن الحركة الصهيونية وما ساندتها من حركات استعمارية في ثلاثينيات هذا القرن وأربعينياته ، استطاعت أن تفيد من هذا الكتاب - وهو الذي وضع بالانكليزية - في توجيه سيرها نحو أهدافها ، ووضع خطتها المقبلة انطلاقا من بعض النقاط التي عرضها المؤلف في الفصل الاخير . فهو يدافع عن ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، بهذه العبارات :  
( لا يرجى لفضية فلسطين حل دائم الا حتى يزال الظلم . أما العنف سواء كان ماديا أو معنويا فإنه لا يكفل حلا . وهو في ذاته يستثير اللوم ، كما يجعل التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود اصعب تحقفا على مر الايام . نعم ان العرب حين لجأوا اليه قد لفتوا الى مظالمهم انتباها جديا ، وهذا أمر عجزت عن أن تحققه لهم جهودهم السلمية في القدس ولندن وجنيف على مدى عشرين عاما . الا ان العنف يمدو طوره ، ويحطم غاياته نفسها ، والضرر الذي لا ينفك عنه ، ينقص من قيمة الارياح العاجلة التي يكسبها ، ولن يتولد الا الضرر عن الارهاب الذي يكتسح اليوم فلسطين الا أن الطريق السديد لانهاة هو ازالة الاسباب التي أوجدته . تلك حقيقة لا بد من مواجهتها وهي أن عنف العرب نتيجة حتمية للعنف المعنوي الذي أخذوا به ، ولن يكف عنفهم ، مهما تتسرع الدولة بوحشية القمع والاذلال ، الا اذا كف العنف المعنوي نفسه ! )  
هذا الكلام يبدو لنا اليوم أفلاطونيا بعد أن جرى ما جرى في فلسطين ، او ان فيه نائرا : بالجو الفكري الذي حمله غاندي الى فضاء ذلك الجيل ، وأشبع به آفاق السياسة الدولية ، وقد استطاعت مكافئية الصهانية والاستعماريين أن تستغل يومذاك جميع ما في العالم من أفكار لبلوغ مآربها ...

ولكن الظاهر من كلام أنطونيوس أنه كان يواجه أحداث جيله بروح خاصة ، هي الى التسامي الفكري أقرب ، فهو يتحدث ، وفي قضايا سياسية على جانب كبير من الخطورة ، كمن ينصح أو يعظ ، من ( استشارة اللوم ) الى ( التفاهم ) بين العرب والبريطانيين واليهود ، الى ( ضرر العنف ) .

وهذه المحاولة في التسامي تمنع المؤلف - فيما أرى - من التقاط اللوابع والحوافز الكامنة وراء التيارات السياسية ، ولا سيما في الحقبة التي أرخها .

المهم أنك تجد في هذا الكتاب ما لا تجده في غيره من الكتب التي تناولت التاريخ السياسي في الشرق العربي ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

وأراني في غنى عن الاشادة ببيان الدكتورين : الاسد وعباس - وهما اللذان ترجمتا الكتاب - فهما من المجلن في هذه الحلبة ، ولهما فيها أكثر من سبق ، كما أن لهما فضلا في اغناء المكتبة العربية بما سبق أن ألفا وترجما وحققا من كتب ...

عبد اللطيف شراره